

اثر العلوم الانسانية في توجهات نظرية العمارة

ان العمارة مرآة لعادات المجتمع وتقاليده، فالمسكن هو مأوى المجتمع الصغير، او العائلة التي تحدد كيانها مجموعة من العادات والتقاليد التي تسيطر على حياتها وتشكل كل ما يحيط بها ويعمل على خدمتها داخل ذلك المأوى من اشكال الحجرات وما يؤديه كل منها، وقطع الاثاث، او اجهزة الخدمات وادوات المعيشة، كما نرى ان احساس المجتمع الصغير بفنون الحياة ينعكس على وسائل الرفاهية وتجميل المسكن من زخارف ولوحات وستائر ومعلقات واجهزة للاضاءة، بينما يعبر خارجه عن طراز المجتمع الخارجي، او علاقة المجتمع الصغير بالمجتمع الكبير او الحياة العامة.

تطرح المحاضرة مشكلة عامة تتمثل بـ **اثر تغير العوامل الثقافية والاجتماعية (الاعراف والتقاليد) في العمارة المحلية**، حيث يتم يتناول المفردات الرئيسية المرتبطة بالعوامل الاجتماعية المتمثلة بالثقافة من ناحية المفهوم والعناصر (الاعراف والتقاليد) والتغير الثقافي في محوره الاول، اما في المحور الثاني فيتناول المجتمع، المفهوم وثقافة المجتمع والتغير الاجتماعي الثقافي. اما في المحور الثالث فيطرح مفهوم العمارة بصورة عامة والعمارة كظاهرة حضارية بصورة خاصة، لينتهي بطرح بعض الدراسات (دراسة ابن خلدون، المقدمة/ دراسة الوردني، في النفس والمجتمع العراقي/ دراسة بونتا، العمارة وتفسيرها) .

المحور الاول: الثقافة (Culture)**١- مفهوم الثقافة**

الثقافة كلمة عريقة في اللغة العربية أصلاً، فهي تعني صقل النفس والمنطق والفظانة، وفي القاموس المحيط ثقّف ثقفاً وثقافةً، صار حاذقاً خفيفاً فطناً، وثقّفه تثقيفاً سواه، وهي تعني تثقيف الرمح، أي تسويته وتقويمه. واستعملت الثقافة في العصر الحديث للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات. والثقافة ليست مجموعة من الأفكار فحسب، ولكنها نظرية في السلوك بما يرسم طريق الحياة إجمالاً، وبما يتمثل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب، وهي الوجوه المميزة لمقومات الأمة التي تميز بها عن غيرها من

الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب. فالثقافة بمعناها العام هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات.

إن مفهوم الثقافة بمعناها الاجتماعي يختلف كثيرا عن معناها العام وهو يتضمن كل ما يمكن أن يعلم عن طريق العلاقات الإنسانية المتداخلة وهو يتضمن أيضا اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية وغيرها أي هو يحتوى على كل ما يحدث في المجتمع وكل ما يصنع فيه ومن يصنعه ومن الملاحظ انه لا توجد جماعة بشرية تستطيع أن تعيش من غير أن تكون لها لغتها وعاداتها وتقاليدها ونظمها الاجتماعية الخاصة بها ومن ثم فالثقافة كمفهوم بمعناه الاجتماعي العلمي توجد في المجتمعات البشرية وتتميز بها هذه المجتمعات على وجه الخصوص . والثقافة هي مجموعة أنساق القيم والعادات والأعراف التي ينتجها الشعب في مرحلة زمنية معينة وممتدة حيث أن الإنسان الأمي برغم جهله بالكتابة والقراءة إلا أن له وجهة نظر في الحزن والحياة والموت واستقبال الضيف ومعاملة الحيوان وغير ذلك وهو بذلك يكون قد أنتج ثقافة يعتقد بها ويتمسك بها ويدافع عنها لأنها جزء من شخصيته وذلك من غير أن يكتبها أو يدونها أي أن الثقافة هي أساليب للحياة والجزء غير المكتوب منها والمغمور في باطن الفرد والشعب .

٢- عناصر الثقافة

على ضوء ماتقدم تقسم الثقافة الى جانبين ثقافة مادية المرتبط بالانتاج والتقنية، وجانب الثقافة غير المادية (الجانب المعنوي) المرتبط بفكر الانسان. ان الجوانب غير المادية للثقافة لها أكبر الأثر في تشكيل الجوانب المادية للثقافة فعادة ما تكون الأشياء المصنعة انعكاسا لجوانب غير مادية، فالمسكن ومعالجاته هو تعبير عن أعراف بنائية خاصة بالمجتمع ونظرا لهذه العلاقة التلازمية بين الجوانب المادية واللامادية للثقافة و عند حدوث تغيير لأحدهما يحدث تغيير في الطرف الأخر والأسرع عادة في التغيير الجوانب المادية وذلك بسبب التغيير السريع في التكنولوجيا.

وفي العربية تستعمل كلمتي (الثقافة) و(الحضارة) ترجمة لكلمة (Culture) ومن المفكرين العرب من يرى ان كلمة الثقافة دالة على الجانب الفكري من الحضارة، ومنهم من يذهب الى ان

كلمة (حضارة) ينبغي ان تكون ترجمة لكلمة (civilization) والثقافة (Culture) ولا يزال الخلاف قائما حول الموضوع.

ومن هنا يمكن القول أن معنى الثقافة معنى عام يشمل أسلوب الحياة للناس في مجتمع من المجتمعات فهو التراث الاجتماعي لجماعة من الناس يرثونه جيلا بعد جيل كأفراد أو جماعات، وبذلك تكون الثقافة مجموعة العادات و القيم و التقاليد التي تعيش وفقها جماعة أو مجتمع بشري ولأن البحث يركز على موضوع الاعراف والتقاليد باعتبارها جزءا من الثقافة وهي جزء من العوامل الاجتماعية في نفس الوقت، لذلك سنحتاج الى توضيحها بصورة اوسع واشمل.

٣- الاعراف:

هي طائفة من الأفكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ في الجماعة وتنعكس فيما يزاوله الأفراد من أعمال وما يلجأون إليه في كثير من سلوكهم الجماعي كما تتمثل في الحكم والأمثال والأغاني الشعبية والقصص الأدبية التي تعتبر مظهرا من مظاهر التراث الثقافي.. ولكي يتكون العرف لابد أن يتوفر له عاملين هما):

- العامل المادي : الذي يتضمن عادة قديمة وغير مخالفة للنظام العام.
- العامل المعنوي : أن يشعر الناس بضرورة احترام العادة .

و العرف هو مجموعة من العناصر والعلاقات ذات مستوى من التداولية والدلالة المشتركة والتي تمكن من تفعيل مستوى من التواصل الجمعي بين افراد ثقافة معينة (culture) او ثقافة جزئية (sub culture) او شكل ثقافي (cultural form)، فيكون جزءا من هويتها ويتميز بالاتفاق العام وعدم الالزام والاستقلالية وعدم القصدية، فالعرف ينشأ من التداول غير القسدي في اغلب الاحيان ويتشكل على هيئة بنية قائمة بذاتها تدخل في مفردات الحياة الاجتماعية، ومن ضمنها العمارة .

فالأعراف هي بنى مشتركة قائمة بذاتها تمثل الأساس لأي عملية اتصال أو توصيل وتعمل بمستويات الدلالة والتداول والتركيب وتمثل الحالة الآنية لهوية المجتمع وتثيره التغيرات في الأعراف على حالة المجتمع من القلق أو الاستقرار وتمثل الثقافة الحالة المستقرة للأعراف .

و العرف فلسفيا هو ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول، وتلقته الطبائع بالقبول (تعريفات الجرجاني) وهو قسمان عرف عام، وعرف خاص. اما العرف العام فهو مجموع العوائد والتقاليد العامة المنتشرة في المجتمع، واما العرف الخاص، فهو مجموع ما يتعوده الفرد من انماط السلوك. والعرف لا يثبت الا بالتكرار.

والأعراف المعمارية هي حالة شد بين قوى التغيير والتثبيت ، ففي حين تشكل عوامل التثبيت أسس الديمومة والاستقرار وعناصر الوجود وأساسيات تشكيل هويته ، فإنه لا يمكن له أن يعيش حالة التكرار التي تؤكد الملل بدون التغيير الذي يمكن أن يترجم بمفاهيم النمو و الفعالية و الإبداع.

٤- التقاليد

تعرف **التقاليد لغويا** (مصدر قلد). ويطلق على معنيين الاول حكم، والثاني اتباع الانسان غيره فيما يقول او يفعل من غير نظر وتأمل في الدليل. وربما عرف التقليد بأنه اعتقاد حازم غير ثابت اي يزول تشكيك المشكك. وجمع التقليد تقاليد وتقليدات.

وتعرف **التقاليد اصطلاحيا** بأنها مجموعة من القواعد والسلوك الخاصة بطبقة معينة أو طائفة أو بيئة محلية محدودة النطاق. وهي تنشأ من الاتفاق على إجراءات وأوضاع معينة خاصة بالمجتمع المحدود الذي تنشأ فيه ولذلك فهي تستمد قوتها من قوة المجتمع (الطبقة) الذي أصطلح عليها وتفرض سلطتها على الأفراد. فالتقاليد شأنها شأن العادات والعرف عبارة عن مصطلحات اجتماعية مزودة بصفة الجبر والالتزام كما أنها تعتبر صفة مميزة للطبقة التي تأخذ بها. واحترام تلك التقاليد يدل على مدى تضامن هذه الطبقة وحرصها على تحقيق قوتها الذاتية، ومن التقاليد ما يتصف بالمقومات الأساسية بالجماعة ومنها ما يتصل بالأحوال العادية ومسائل الروتين في حياة المجتمع ومثال على التقاليد المهمة هي الأخذ بالنأر وهو تقليد تسير عليه بعض القبائل كذلك تقليد النقوط في مناسبة الزواج في بعض الطبقات، ومما يدل على مبلغ قوة هذا التقليد. و التقاليد تمثل عادات وممارسات تلقائية. والتقليدي هو اعادة شكل وهيئة البناء او أثر ما كما وجده واستعمله الفرد. وتتأسس التقاليد في العمارة وتستمر وتتطور بمنظور حلقات متسلسلة تتكامل مع الزمن.

وتعرف **التقاليد فلسفيا** (Traditions)، هي ما وصل الينا من العادات والعقائد خلفاً عن سلف، منها التقاليد الدينية ، والتقاليد الاجتماعية، والتقاليد السياسية وغيرها. وهذه التقاليد اما ان تكون مكتوبة او غير مكتوبة، وهي اذ توحد الأفراد تنتقل من جيل الى جيل وتعمل على اتصال حضارته .

والتقليد فلسفيا هو اتباع الانسان غيره فيما يقول او يفعل، معنقدا الحقيّة فيه، من غير النظر الى دليل، أو هو قبول قول (الغير) بلا حجة ولا دليل. ويطلق التقليد في علم النفس على

كل ظاهرة نفسية شعورية، او غير شعورية، من شأنها ان تكرر ظاهرة نفسية سابقة. ويقسم التقليد الى نوعان التقليد الشعوري هو ان يكون المقلد عالما بأنه مقلد، والتقليد اللاشعوري هو ان يكون المقلد غير عالم بأنه مقلد. ونظرية التقليد او المحاكاة في علم الجمال هي القول ان مبدأ جميع الفنون تقليد الطبيعة .

والتقليدية (Traditional) فلسفيا هي حب التقاليد والتعلق بها، او هي القول بوجود محافظتنا على الاوضاع السياسية والاجتماعية القديمة، لا لأقامتنا الدليل العقلي على ضرورتها، بل لاعتقادنا أنها تعبير طبيعي عن حاجات المجتمع الحقيقية، ولعلمنا ان اصرار العقل على نفعها لا ينتج الا الشر والفساد. ويسمى اصحاب هذا الرأي بالتقليديين، خلافا للعقلانيين الذين انحلت عنهم رابطة التقليد، ووجبوا النظر في المقبولات والمشهورات والتقليديات لمعرفة ما يلزم منها وما لا يلزم .

و التقاليد المعمارية هي تلك العناصر المعمارية والأكاداس الهائلة من النتاجات المعمارية البنائية وطرق تركيبها، فالتقاليد تشكل نظاما بالغ القوة والتأثير وعلى المعماري استغلالها وإحيائها بطرق غير تقليدية .

و يطرح المعماري (Eisenman) فكرته عن التقاليد حين يشير إلى ضرورة تغيير الخطاب التواصلية بتغيير طبيعة الارتباط مع التقاليد والرموز، وهذا لا يعني تجاهل التقاليد ولكن يعني البحث عن ما هو كامن في تلك التقاليد والاستفادة منه .

ومن هنا يمكن القول بأن العادات والتقاليد تعتبر من الأصول التي استمدت منها النظم والقوانين مادتها، وهي من الدعائم الأولى التي قام عليها التراث في كل بيئة اجتماعية وهي كذلك تعتبر القوة الموجهة والمؤثرة في أعمال الأفراد.

ويعتمد البحث تعريف الاعراف والتقاليد بكونها عوامل اجتماعية حاضرة في المستقبل ولها جذور من الماضي، تعكس افكار ومعتقدات المجتمع ولها مستوى من التداولية والدلالة المشتركة، واذا استقرت هذه الاعراف والتقاليد فهي تعكس شكل من اشكال الثقافة.

٥- التغيير الثقافي

يحصل التغيير الثقافي في المجتمعات التقليدية التي لا تتعرض الى اتصالات خارجية عن طريق النمو المتوازن والذي يتم عن طريق الاجيال المتعاقبة وازدادتها المنطقية، ومثل هذا النمو لا يجد معه المجتمع انه يواجه شيئا غريبا في كيانه يحتاج الى عمليات مجهدة لمقابلته، فهو نمو متسلسل يعتمد على الزمن وعلى الحاجات المحسوس بها، وهذا النمو ينبع من داخل ثقافة المجتمع ويقوم به اعضائه انفسهم، الا ان المجتمعات المعاصرة تمتاز بفقدانها للطمأنينة الثقافية،

وذلك الانسجام المتناسق لاسباب كثيرة اهمها انها اصبحت تعتمد بدرجة ما على الموارد الخارجية، اضافة الى عنصر النمو الذاتي.

ان التغيير الثقافي الذي يحصل في مجتمع ما، لا بد وان يؤدي الى تغيير في عمارته، من خلال حصول تغيير في بعض او عدد من الرموز المعمارية او استحداث او حذف اخرى وبالتالي دخول معاني جديدة في تلك العمارة.

المحور الثاني: المجتمع

1- مفهوم المجتمع

ويعرف المجتمع اصطلاحيا بأنه مجموعة من المتغيرات التي تتفاعل فيما بينها، اضافة الى تفاعلها مع عدة متغيرات وثوابت خارجية تؤثر عليها وتتأثر بها. بكلمة اخرى، ان نمط العلاقات الاجتماعية هو ناتج او حسيطة مجموعة من التفاعلات المعقدة والتي يصعب تقدير او استنتاج قوتها، وقت حدوثها، استمراريتها، اسباب حدوثها، طبيعة نتائجها، طرق معالجة سلبياتها، و حتى لا يمكن معرفة طرق الاستفادة من ايجابياتها هذه الحقيقة تثير الكثير من العراقيل والصعوبات لدى العاملين في مجال التخطيط وعلى الاخص التخطيط لمشاريع الاسكان. ويخلق المجتمع من الأفعال والتفاعلات الحادثة بين مجموعة من الأفراد المكونين له، وهؤلاء الأفراد يتأثرون بمحيطهم الاجتماعي الذي يعيشون فيه، والمحيط الاجتماعي والذي يعرف بأنه المحيط الذي لا يشتمل فقط على وجود الأفراد سواء وجودا حقيقيا أو تخيلا أو رمزيا ولكنه يشمل كذلك التفاعلات بين هؤلاء الأفراد والأنساق المادية (الفراغية) التي تأخذ هذه التفاعلات مكانها فيها والأنشطة التي تحدث في إطار هذه الأنساق ومجموعة القواعد غير المكتوبة، والتي تحكم كيفية ارتباط الناس ببعضهم البعض.

ويعرف المجتمع فلسفيا بكونه المفهوم الذي يشير ببساطه إلى التنظيمات الاجتماعية التي من خلالها يعيش الفرد وباقي أفراد المجتمع بطريقة مشتركة في إطار نسق منظم، فالمجتمع والفرد يتفاعلان معا من خلال عمليات محددة والنتيجة المترتبة على ذلك إن أنماط سلوك الأفراد في مجتمع ما يمكن التنبؤ بها، ويرجع ذلك إلى أن الثقافة الاجتماعية في المجتمع تنتقل من جيل إلى آخر يليه كما أن للثقافة تأثير في المجتمع وسلوك الأفراد وعندما تأخذ بعض الأنماط الثقافية ذات الأهمية شكل العادة و التقليد يطلق عليها (النظم الاجتماعية) فالمجتمع يؤثر بدرجة كبيرة على السلوك من خلال التمثل لمستويات ثقافته وتقاليد و بطبيعة الحال تختلف

الثقافة الاجتماعية باختلاف المجتمعات، ولا توجد ثقافة أفضل من أخرى ولكن كل ثقافة تختلف عن الأخرى.

يعرف علماء الاجتماع المجتمع على انه نسق مكون من العرف والسلطة وشتى وجوه ضبط السلوك الإنساني والحريات، فهو نسيج العلاقات الاجتماعية وأخص صفاته انه متميز ومتغير، أي أن المجتمع هو إطار من القيود والتنظيمات التي تجمع جماعة من الناس وتحدد نوعية العلاقة والمعاملات فيما بينهم.

٢- ثقافة المجتمع

تختلف ارتباطات كلمة الثقافة بحسب ما نعنيه من نمو الفرد، أو نمو فئة أو طبقة أو نمو مجتمع بأسره، فثقافة الفرد تتوقف على ثقافة فئة أو طبقة وثقافة الفئة أو الطبقة تتوقف على ثقافة المجتمع كله الذي تنتمي إليه تلك الفئة أو الطبقة. وبناء على ذلك فان ثقافة المجتمع هي الأساسية. أي أن ثقافة الفرد لا يمكن أن تفصل عن ثقافة الفئة وان ثقافة الفئة لا يمكن أن تجرد من ثقافة المجتمع كله.

ويلاحظ انه على الرغم من أن الثقافات واللغات البشرية تتشابه في خطوطها العريضة من مكان لآخر، إلا أننا نجد قدراً هائلاً من التنوع الثقافي واللغوي الذي يرجع إلى الفروق في البيئة الطبيعية والإتصال مع الجماعات الأخرى. ويبدو أن هناك علاقة بين البيئة المادية والتنوع الثقافي او بمعنى آخر هناك تأثير للبيئة المادية على ثقافة مجتمع ما ولذلك توجد مجتمعات عديدة ذات ثقافات مختلفة طبعا لوجود بيئات مادية مختلفة.

٣- التغير الاجتماعي الثقافي

يمكن تعريف التغير الاجتماعي بأنه تغير في البناء الاجتماعي مثل: التغير في حجم المجتمع أو في النظم الاجتماعية أو في العلاقات بين النظم بينما يطلق مصطلح التغير الثقافي للدلالة على صور التنوع التي تطرأ على الظواهر الثقافية مثل: المعرفة، والأفكار، والفن والمذاهب الدينية والأخلاقية بمعنى أن التغيرات الاجتماعية والثقافية ترتبط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً.

كما يقصد بالتغير الاجتماعي بأنه التحول الطبيعي الذي يصيب أنماط العلاقات وشكل السلوك السائد بين الأفراد بحيث يؤثر في النهاية على بناء المجتمع ووظائفه، وهو مرتبط بنمط الحياة باختلاف مكوناتها الثقافية. غير أن ما نركز عليه هنا الحراك الاجتماعي الذي يعني انتقال المجتمع من وضع اجتماعي إلى وضع آخر، وقد ظهر ذلك واضحا في فترة السبعينات حيث ساعد الانفتاح على زيادة الحراك الاجتماعي الذي صاحبه تغيير نوع الامتيازات التي يتمتع

بها الفرد عند انتقاله من مكانة إلى أخرى، وأيضاً تغيير في الاحتياجات الخاصة مما ينعكس بدوره على تصميم المسكن وبالتالي على الخصوصية المطلوبة فيه.

وكما ان الاعمال الفنية واللغوية والفكرية تتطور بتطور المجتمع فتتعرض مفرداتها، وتتضح مدلولاتها وتستجيب بما تمتلكه لذلك التطور. كذلك الحال بالنسبة للعمارة، فكلما توقف نمو مجتمع ما، توقف تطور العمارة فيه وبقيت محافظة على مفرداتها ومدلولاتها وعناصرها، وكلما تطور تطورت وتغيرت، فيحصل فيها الحذف والاستبدال والتحوير والتبديل، وهذا ما نلاحظه في مجتمع بغداد، فقبل الحرب العالمية الاولى كان المجتمع جامداً وكنتيجة لذلك ظلت العمارة محافظة على لغتها ومفرداتها. ومع اختلاف طبائع الناس ودرجة ايمانهم بالعوادات الاجتماعية والقيم السائدة في المجتمع، فان تأثير تلك العادات والتقاليد كان طاغياً، ومؤثراً بحيث طبعت عمارتها السكنية بطابع مميز هو الذي وصلنا. وعند احتلال الانكليز بغداد حصلت الكثير من التغيرات في المجتمع

حيث ظهرت اتجاهات متعددة في العمارة السكنية، بفعل الكثير من العادات والتقاليد والاعراف الاجتماعية الجديدة الدخيلة.

المحور الثالث: العمارة

يعرف (Silver) العمارة بأنها منظومة تقييم العلاقات بين البشر وليست منظومة تقييم علاقات بين الأشياء ولكنها بذات الوقت تتطوي على الأشياء والبشر. ويراهما الجادرجي جسماً مادياً استولد حصيلة تفاعل بين مادة وفكر ،، ذلك الجسم المادي الذي يستولد للوجود حصيلة انتاج اجتماعي حقيقي مادي عن طريق تعامل فرد او مجموعة مع مادة معينة، وهي تجسيد لفكر يؤمن به الإنسان، أي أنها نتاج فكري قبل أن تكون نتاجاً مادياً، لذا يرى (Abel) بأنها تعبير عن التقديرية الإنسانية. فالعمارة هي وسيلة التواصل وأداة لصياغة الأفكار والعواطف، إنها أداة الإبداع وحافظته وهي الروح المتغيرة للعصور. وتعرف العمارة على انها فعالية انسانية عامة (Common human activity) لان كل انسان يساهم في بنائها بما يضيف اليها من تفاصيل .

إن دراسة المفاهيم الفكرية التي أسقطت من قبل الإنسان على العمارة جعل منها متناوبة العلاقة الفكرية التطورية مع العديد من الفنون والعلوم. مما يجعل عملية إعطاء تعريف شامل ومتكامل للعمارة يستطيع استيعاب التغيرات التي يفرضها وجود الإنسان ضمن زمان ومكان مختلف وضمن روى مختلفة للأمور، أمراً غاية في الصعوبة. وبهذا فان تعريف العمارة يتغير

ويعاد صياغته مع كل جيل باختلاف الزمان والمكان. مرتبطاً بالبناء والعلم والفن والمظهر (الشكل) واللغة والتكنولوجيا والهندسة، فتمثل بذلك الحقيقة الحضارية والمقصود به المعنى اي كمنظومة دلالية بما تحمله من قيم ومعاني، أي هي العلاقة بين العمارة والمجتمع من خلال مفهوم الشكل وما يحمله من معنى.

وتولد عن التجربة العملية والمعرفة النظرية وهي تعتمد على نظام يتطلب المعرفة الواسعة في المجالات المختلفة .

والعمارة كتعريف شامل يتغير وتعاد صياغته مع كل جيل باختلاف الزمان والمكان. وهي تتلخص في ثلاث: (المتانة والمنفعة والجمال) لذلك فهي النظام والترتيب والمظهر الجميل وهي فن الإنشاء أو فن البناء.

من خلال ما سبق من تعاريف للعمارة نلاحظ أنها تشتمل على جانبين جوهري ومظهري وتنظم وفق لغة مجسدة تحمل دلالات روحية ومادية يتفاعل فيها كل من المتلقي وفكر الإنسان ويده والمواد الخام لتكوين ناتج يلبي حاجة الفرد والمجتمع (كحقيقة جوهريّة في وجودها الفيزيائي واللافيزيائي لتحقيق غاية وجود الإنسان) في زمان ومكان معينين.

-العمارة كظاهرة حضارية

يرتبط مفهوم العمارة (Architecture) بحضارات الأمم ويتجسد بما تخلفه تلك الحضارات من شواهد مادية، تعكس ما تم التوصل اليه من تقدم حضاري في اي عصر من العصور. وتطرح الدراسات أهمية البناء المعماري في كل العصور لكونها الشاهد الوحيد على أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. والتي توضح مدى تأثرها بما حولها سلبا وإيجابا فتمثل بذلك التعبير الطبيعي والمرآة الصادقة لعادات وسلوك وأساليب الحياة في شتى المجالات.

والعمارة كظاهرة حضارية يتعلق وجودها الفكري بمجموعة القيم والأفكار والدلالات التي يحملها المبنى، والتي ترتبط بصورة مباشرة بالإنسان (الذات) subject، بصفته الصانع maker او المتلقي recipient. إذ يذكر (رينيه هيو Rene Hugghe) إن العمارة جزء من عملية النشوء والارتقاء الكلي للأفكار والتقاليد الحضارية والإنسانية. والحضارة بجانبها الفكري والمادي هي نتاج او حصيلة صراع الإنسان والمجتمع في معركة البقاء والارتقاء من خلال استخدام العقل البشري ومنجزاته المادية وغير المادية، والحضارة لا تهدف فقط للبقاء وانما في الارتقاء بالإنسان والمجتمع البشري إلى أعلى درجات الإنسانية . فالعمارة ليست تلبية لحاجات فيزيائية فقط بل هناك حالة اشمل من ذلك تولدها الظروف المحيطة به ومن طبيعة السياق الذي يوجد فيه المبنى أي "فن الحضارة".

كما ان سمات العمارة المتعلقة بصفاتها ظاهرة حضارية، هي سمات تحمل صفة الفردية والتغير، تبعاً لعاملي الزمان والمكان. فقد استطاعت العمارة ومن خلال استمرار حضورها عبر فترات طويلة من الزمان، ومقاومتها الدائمة لعوامل ومؤثرات الزمن في دراسة طبيعة وثقافة مجتمعاتها.

ومن هنا فان أهمية العمارة لا تكمن في كينونتها كشخص حضاري لمجتمع ما في فترة معينة فحسب، وانما في ديمومتها ومقارعتها للزمن وتمكيننا من معرفة فكر الكثير من مجتمعات التاريخ، ومجتمعات لم يعثر على مدوناتها. وهذا يوضح مقولة ان العمارة مرآة عصرها نرى فيها كل التغيرات الفكرية والاجتماعية في عصر ما ولمجتمع ما. وان حقيقة كون العمارة جزءا من النتاج الحضاري للمجتمع ، وهذا النتاج يحمل معاني رمزية دلالية تعبر عن واقعه. وان العمارة بالإضافة إلى كونها تحقق وتقدم الحاجات الأساسية للإنسان فهي توفر أيضا للإنسان والمجتمع قيما ثقافية واجتماعية متميزة تحقق الذات او الشخصية من خلالها.

ويشير (البيروتى) إلى ان لكل شكل معان مرتبطة به تستمد روحيتها من قيم تلك الحضارة، بارتباطه بنوعيه من العلاقات مع العناصر الحضارية الأخرى التي تعطيه تلك المعاني، فان انتقال الشكل أو الصورة إلى حضارة أخرى لايعني انتقال معاني ذلك الشكل معه، وانما يعني امتلاك الشكل في موقعه الجديد لمعاني جديدة تستمد روحيتها من قيم الحضارة الجديدة. أي ان الشكل المستغل في الحضارة الجديدة يفرغ من معانيه السابقة التي يمتلكها في موقعه الأصلي (كليا أو جزئيا) ويكتسب معاني جديدة يتم إبداعها فيه، نابعة من قيم وروحية الحضارة الجديدة. وبالتالي فان انتقال شكل معماري من حضارة لأخرى يعني تغير في المعاني التي يحملها، وذلك لاختلاف الاستعمال وتغير في العلاقات المرتبط بها مع أشكال أخرى

المحور الرابع: الادبيات التي تناولت محور العلاقة

- الدراسة الاولى: دراسة عبدالرحمن بن خلدون/ مقدمة ابن خلدون/ 1967

تعد الثقافة نتاج صراع الإنسان مع البيئة منذ القدم وحتى الآن وقد عبر عن ذلك ابن خلدون في مقدمته "إن الثقافة من وضع الإنسان بما قام به من جهد وفكر ونشاط ليسد به حاجته في البيئة حتى يعيش معيشة عامرة وزاخرة بالأدوات والصنائع"، ويقول ايضا "ان الحضارة غاية العمران" وايضا "الحضارة هي الترف واستجابة احواله والكف بالصنائع التي تؤلف من اصنافه وسائر فنونه".

هناك مجموعة من القوانين الاجتماعية التي تحكم المجتمع حيث يمكن تعريف مصطلح الاجتماع (علم) حين اطلق (ابن خلدون) اسم الاجتماع الانساني على عمران العالم، قال : "ان

الاجتماع الانساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم ان الانسان مدني بالطبع وان الظواهر الاجتماعية تخضع لقانون السببية، وينقسم هذا العلم عنده الى قسمين: اولهما السكون او التوازن الاجتماعي، وثانيهما الحراك الاجتماعي. ومعنى ذلك كله ان علم الاجتماع يبحث في الظواهر الاجتماعية من جهة ما هي خاضعة لقوانين طبيعية كغيرها من الظواهر المادية او الحيوية.

حيث يعتقد ابن خلدون ان المجتمع عبارة عن منظومة متفاعلة من العلاقات والمصالح، وهو في صيرورة دائبة وتغير مستمر. وهو اذن لا ينطبق عليه ما يؤمن به المنطق القديم من حقيقة مطلقة لا تتغير. و يعتقد ايضا ان تأريخ المجتمع البشري يسير في دورات متتابعة من جراء التصارع بين البدو والحضر، وما دام كل من هاتين الفئتين ذات صفات مضادة لصفات الفئة الثانية، فلا بد ان يقع الصراع بينهما على وجه من الوجوه. ان الدورة الاجتماعية في رأي ابن خلدون محتومة لا مفر منها، والدول جميعا تخضع لها. فليس هناك دولة تبقى الى النهاية قوية لا يغلبها غالب. فكل دولة لها عمر كعمر الافراد تبدأ فيه نشيطة مزدهرة ثم تهزم وتموت. وقد تظهر بعض العوامل الطارئة فتعرقل تتابع الدورة احيانا او تطيل من عمر احدى الدول احيانا اخرى، ولكن الدورة على الرغم من ذلك لا تقف، ولا بد للدولة، مهما كانت من نهاية تموت فيها كما يموت الافراد.

ان الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون، وانها محكومة في مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ما عداها من ظواهر الكون، كظواهر العدد والفلك والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات،

في ضوء ما تقدم، يمكن اجمال الجوانب التي بحثتها الدراسة على النحو الآتي:

ان المجتمع عبارة عن منظومة متفاعلة من العلاقات والمصالح، وهو في صيرورة دائبة وتغير مستمر، وان الاجتماع الانساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم ان الانسان مدني بالطبع. وان الظواهر الاجتماعية تخضع لقانون السببية، وينقسم هذا العلم عنده الى قسمين: اولهما السكون او التوازن الاجتماعي، وثانيهما الحراك الاجتماعي. ومعنى ذلك كله ان علم الاجتماع يبحث في الظواهر الاجتماعية من جهة ما هي خاضعة لقوانين طبيعية كغيرها من الظواهر المادية او الحيوية.

- الدراسة الثانية : دراسة د. علي الوردي / في النفس والمجتمع العراقي/ ١٩٨٩

تتناول الدراسة في محورها الاول موضوع تغير القيم الاجتماعية السائدة التي توجه الناس في حياتهم الاجتماعية. وان تغير القيم ليس بالامر السهل بل هو من اصعب الامور، وان من طبيعة التغير الاجتماعي انه لا يحدث على وتيرة واحدة في جميع نواحي المجتمع. ففي بعض

نواحي المجتمع يكون التغيير سريعاً كالملابس والمسكن والمهن ووسائل التعليم والثقافة بينما يكون التغيير بطيئاً في العادات والتقاليد والقيم، وهذا ما يؤدي إلى التناثر الاجتماعي وهذا ما يحدث في مجتمعنا والمجتمعات الأخرى.

وصولاً إلى المحور الثاني للبحث الذي يتناول تأثير تغيير القيم الاجتماعية وهو ما يؤدي بالنتيجة إلى التناثر الاجتماعي وهو مفهوم يعبر عن ظاهرة اجتماعية تظهر في كل مجتمع يمر بمرحلة تغيير. فأن بعض الجوانب من المجتمع تتغير بسرعة بينما الجوانب الأخرى تتغير ببطء وهذا الفرق في سرعة التغيير يؤدي إلى مشاكل مختلفة يعاني منها المجتمع قليلاً أو كثيراً. ويرجع سبب هذا التناثر الاجتماعي إلى أفعال الإنسان وأفكاره غير الواعية وهو ما يؤثر بصورة كبيرة على العوامل الاجتماعية.

ويعرض الوردي إمكانية تطبيق هذه النظرية على المجتمع العراقي فنجد أنه مر بمرحلة تغيير كبرى عقب الحرب العالمية الأولى، ومن مواضيع التغيير الاجتماعي الكبير هما: الانفتاح الطبقي والصراع بين المحافظين والمجددين. وفي هذه المرحلة استقبل العراقيون الحضارة وهي تحمل لهم الكثير من الاختراعات والنظم والمبادئ والقيم التي لم يكن العراقيون يعرفون عنها إلا القليل. وقد أدى ذلك إلى ظهور تناشرات متنوعة في هذا المجتمع. وهي من أعجب الفترات في تاريخ العراق إذ انتقل فيها خلال مدة قصيرة لآلاف السنين عن ٧٠ عاماً من وضع القرون الوسطى إلى وضع العصر الحديث. ففي تلك الفترة تغير العراقيون في كثير من مظاهر حياتهم الحضارية إلى الدرجة القصوى بينما هم في قيمهم ومعتقداتهم وعاداتهم الاجتماعية لم يتغيروا كثيراً، وهنا منبع المشكلة.

في ضوء ما تقدم، يمكن إجمال الجوانب التي بحثتها الدراسة على النحو الآتي:

إن المجتمع يمر بمراحل تغيير في القيم الاجتماعية السائدة فيه نتيجة إلى تغير أفكار كل إنسان ومعتقداته وأفعاله وهو ما يؤدي بالنتيجة إلى التناثر الاجتماعي لكون التغيير يحدث بدرجات متفاوتة من شخص إلى آخر.

إن طبيعة التغيير الحاصل لا يحدث بوتيرة واحدة بل يكون سريعاً في نواحي وبطيئاً في نواحي أخرى وهو ما يحدث في مجتمعنا الحالي.

هناك جوانب عديدة تؤثر على حياة الإنسان منها اللاشعور فهو يؤثر بنواحي إيجابية وسلبية على حياة الإنسان الاجتماعية، إن العوامل اللاشعورية تؤثر في تفكير الإنسان وسلوكه من حيث لا يدري. وهذه العوامل هي التراثية والجهل والعاطفة والمصلحة والانبوية. وإن العقل البشري حراً مطلقاً كما كان يتصور المفكرون القدامى، وهو كثيراً ما يكون مشلولاً وعاجزاً تجاه العوامل اللاشعورية التي أسلفنا ذكرها.

- الدراسة الثالثة : دراسة خوان بابلو بونتا / العمارة وتفسيرها / ١٩٩٦

ان تاريخ العمارة هو سجل للطرز المختلفة، ويمكن ان يتعرض المعماربيون في اية لحظة من الزمان الى ضغوط اجتماعية قد تدفعهم الى التصميم بأساليب معينة تعد مقبولة لدى زملائهم في المهنة. ان هنالك نقطة زمانية مثالية يصل عندها المجتمع الى مستوى اشباع حاجاته المادية، ومن ثم يتسنى له تحويل اهتماماته نحو النشاطات التعبيرية. وبالنسبة الى العمارة فانها تبقى وظيفية بحتة حتى تصل الى مثل هذه النقطة.

تتناول الدراسة موضوع الاعراف والتقاليد من خلال مدخلين اساسيين المدخل الاول يعد نظام المجتمع على انه تركيبة من انظمة اشارات اجتماعية وثقافية (Culture and social systems). وان عملية الدلالة تتم من خلال تعالق نظام الاشارات مع النظام الاجتماعي والثقافي. ويقسم بونتا المعنى الى قيم، وهذه القيم نابعة من النظام الاجتماعي والثقافي لشريحة اجتماعية ومبنية على المعرفة الاجتماعية وليست الفردية والتي تشكل الاعراف والتقاليد. وهي في حالة تغير مستمر.

الدلائل والاشكال التي قد تؤدي دور الدلائل في وقت ما قد تتحول الى دلائل مقصودة او اشارات حقيقية او اشارات زائفة في وقت لاحق. وهذه الاشارات بدورها قد تتحول الى دلائل اخرى فهي في حالة تغير مستمر، قد تبقى الاشكال كما هي وقد تتغير بالتدريج الى الاحسن او الى الاسوأ. ومواد العمارة ليست مادة جامدة (الحجارة) بل ابداعا انسانيا مشحونا بالارث الحضاري للمجتمع، شأنها في ذلك شأن اللغة تماما .

اما المدخل الثاني فيتناول شرح أزمة العمارة الحديثة وتفاعل قوى التغيير (Change) وقوى التثبيت (Stabilization) التي تجاذبت اطرافها ويبين مواطن التثبيت في العادات والسلوكيات التي تؤمن استمرار الاعراف في الوجود والحاجة الى التغيير، ولغرض استمرارية اي ثقافة (بل اي حضارة) على البقاء فأنها تحتاج ايضا الى الاستقرار والتواصل.

وهذا ما يؤكد على وجود صراع يستعصي حله، صراع واجهته الحركة الحديثة وتحت نفس الظروف، فالاشارات مقبولة اجتماعيا وهي تعد ذات طبيعة محافظة، الا انها قد تكون غير عقلانية، اما الدلائل فأنها عقلانية وطبيعية الا انها قد تكون مبتدعة، وبالتالي فهي فردية غير اجتماعية. لقد ادرك (رن) ان تفضيله للجمال الطبيعي لن يتغلب على الضغط الذي تسلطه بيئته الحضارية، وقد اقر اولوية الاعراف الاجتماعية على القناعات الشخصية، اذ قال: "مهما بلغت درجة نضوج مشاعر الانسان، فلا بد له في اي عمل بارز من اعماله التصميمية من ان يأخذ بنظر الاعتبار الذوق السائد في العصر الذي يعيشه حتى وان بدا له مفنقرا الى العقلانية".

بعد الدراسة الدقيقة لأساليب الانتاج والتشييد وللمواد الحديثة، سوف تتبلور اشكال ستكون على الاغلب غريبة ومفاجئة لانها تخرج عما هو مألوف وتقليدي. قبل ذلك بسنوات قليلة كان

(ميس) قد عبر عن فكرة مماثلة قائلاً: "يجب ان نستنبط اشكالا جديدة من طبيعة المعضلات الجديدة ذاتها"، وان "تخلق اشكالا نابغة من طبيعة واجباتنا باستخدام الوسائل المتاحة في عصرنا. هذا هو واجبنا".

يطيع الانسان عادة قوانين المحيط الذي يعيش فيه والاعراف والتقاليد العامة، ولكنه يمتلك القدرة على القيام بمساهمة فعالة في احداث قوى التغيير فهو يسعى الى تحقيق كل ما هو جيد وجميل لغرض اشباع متطلبات المجتمع المعقدة والمتغيرة مثل الحاجة الى هوية محلية والانتماء الى المجتمع المتحضر، وهذه القدرة ناجمة عن خصائص الطبيعة الفردية للانسان في تقديم اسهاماتها.

ان القوانين المعمارية تؤلف منظومة يمكن للبشر من خلالها خلق نوع من الاستمرارية المتوقعة في تفاعلهم مع البيئة الفيزيائية والبيئة الاجتماعية، هذا التفاعل بعيد ليكون عملية مكرسة للتغيير، بل العكس لكون جزء منه موجها نحو المحافظة على توازن يتطور باستمرار. ان منظومة القوانين المعمارية هي بالاساس منظمة للحالة المستقرة **Steady state organization** وان امكانية حصول التغييرات الطرازية لا تعزى الى قابلية الجمهور لبناء التفسيرات الجديدة المبتكرة للاشكال الجديدة تماما، بل الى قابليتهم لاكتشاف علاقة تشابه معينة بين شكل جديد ما واحد القوانين التي سبق وضعها وتثبيتها، وتعني القوانين ضمنا وجود درجة من الاجماع بالرأي الذي قد لا يكون له حضور في تفسير اشارات معينة.

في ضوء ما تقدم، يمكن اجمال الجوانب التالية:

ان الاعراف المعمارية هي حالة شد بين قوى التغيير والتثبيت، ولا يمكن تفضيل احدهما عن الاخرى. ففي حالة تشكل عوامل التثبيت اسس الديمومة والاستقرار وعناصر الوجود للانسان واساسيات تشكيل هويته، فإنه لا يمكن له ان يعيش حالة التكرار التي تولد الملل بدون التغيير الذي يمكن ان يترجم بمفاهيم النمو والفعالية والابداع.

تمر الحضارة بزمن تغير وعدم استقرار، واذا اثينا على التغيير بوصفه قيمة ايجابية، واخفقنا في ادراك الحاجة الى الاستقرار. وفي الواقع، من الضروري وجود شئ من الاستقرار لاجل استمرار الدور الحضاري المعماري، وربما لاجل بقاءه اصلا.

هناك انماط معينة من العمارة كانت ذات اهمية قصوى فيما مضى الا انها تخرج من دائرة الاهتمام، وهناك انماط اخرى لم تكن تلقى في الماضي اهتماما يذكر قد تصبح مهمة فيما بعد. واعادة الاهتمام بالعمارة التقليدية المحلية نابغ من كفاءة هذا النمط من العمارة لمعالجة النواحي المتعلقة بالتحكم البيئي.

أثر العلوم الانسانية على نظرية العمارة

تتجلى تلك العلاقة من خلال الاتي :

أ- العمارة والتاريخ Architecture & history:

يتجلى هذا المبدأ وفق استخدام التاريخ في مواصلة الشكل المعماري استناداً الى مفهوم التاريخية (historicism) والاستمرار مع الماضي، ومفهوم الانتقائية (eclecticism) وكيفية اقحام العناصر القديمة، مع ملاحظة فكرة العمارة القديمة كنتاج لعمليات اجتماعية واقتصادية، فالحركة الحديثة للعمارة اعتمدت مفهوم الرفض عكس ما آلت اليه حركة ما بعد الحداثة.

ب- العمارة والعلوم Architecture & sciences:

كنتيجة الرجوع الى الفروع المعرفية المختلفة من علوم، وفيزياء، وبايولوجي، ودراسات إدراكية ونظرية النظام، والذكاء المصنع والسابر تيطيقية وهندسة الحسابات وغيرها بما يشكل مفهوماً للتنظيم (organization).

فنظرية الأنظمة العامة (GST) اعتبرت العمارة عبارة عن انظمة (systems) او كائنات حية ضمن تسمية نظام البيئات (system - environment) والسلوك، والاسترجاع السايبرنيطيقي، ونظرية الحقل في محاولة جعل العمارة كمؤسسة.

ت- العمارة والادراك البشري Architecture & human perception:

وترتبط من خلال العلاقة ما بين الأحاسيس والتجربة والأمور السايكولوجية التي تؤثر في إدراك الفضاء والشكل، مثل البعد (distance) واللون (color)، ودرجة الألفة (familiarity) في التعريف الشكلي والفضائي للعمارة.

ث- العمارة والمستقبل Architecture & future:

استناداً الى المتغيرات المعمارية وبالاعتماد على:

النتاج المستقبلي بما يتناسب مع الحالات التكنولوجية والمجتمعية.

الأسس التخيلية في معرفة الأفكار.

ج- العمارة والمدينة Architecture & city:

ويرتبط ذلك من خلال تكامل العمارة مع نظريات التصميم الحضري وتعقيدات المدينة، والتي تجسدها العمارة من خلال إعادة التمثيل والاظهار في الشكل، والاحتواء الفضائي لتنظيم المؤسسة الاجتماعية، باعتبار ان المدينة اعقد مؤسسة اجتماعية، بشكل يعزز من اظهارات المدينة استناداً الى شبكة الشوارع (networks of streets) والمحاور (routes) والقنوات (paths) والمساحات (squares) ونقاط الشد البصري (focal points) والمجالات (domains) والمراكز الرمزية (symbolic points) والحدود (boundaries). فالمدينة عبارة عن طبقات (layers) من الذاكرة (memory) ذات تحول بطيء مع الزمن تسهم التكنولوجيا في تغيير مستوى العلاقات فيما بين مكوناتها.

ح- العمارة والتبؤ Architecture & ecology:

وهو دراسة علاقة الكائن الحي ببيئته، ويعكس مدى استجابة الكائن الحي وتكيفه لحالات التغيير البيئية، كاستجابة لحالات الحرارة، والبرودة، والضوء واستعمالات الطاقة، بشكل يجعل من شكل المبنى او اساليب استخدام التكنولوجيا تتسجم مع الإنسان.

ان الفروع المعرفية المتخصصة تشير الى مدى تداخل العمارة مع آلياتها المختلفة واستناداً الى طرق التفكير المختلفة التي ترتبط بالأحاسيس، والوظائف والمفاهيم، ودرجة التكامل مع بعضها بشكل يجعل من النظام يحمل صفة التكامل، مع بقية الأنظمة التي تشكلها الأنظمة المعرفية الأخرى، وكثيراً ما تكون تلك الأنظمة الأساس في تكون نظام العمارة.